مِنْ مظاهرِ اهتزازِ هيبةِ الدولةِ عند المواطنِ الجزائريِّ في العشريَّتَيْنِ الأخيرتيْنِ[1]

عبد القادر مهاوات

المركز الجامعي بالوادي.

ينطوي مفهومُ هيبةِ الدولةِ على عنصريْنِ أساسيْنِ: أولُهما الرهبةُ والخشيةُ، أي ما تَبُثُّهُ الدولةُ في نفوسِ الناسِ من شعورٍ بالْوَجَلِ والتهيُّبِ، الأمرُ الذي يمنعُهم من تحدِّيها أو انتهاكِ نظامِها، وهو ما يُثَبِّتُهُ اقتناعُهم بأنَّهم إنْ فعلُوا ذلك سيَلْقَوْنَ عقابًا رادعًا. وقد تُسْعِفُهم ذاكرتُهم بأمثلةٍ لهذا العقابِ في كلِّ مرةٍ تَمَّ التعدِّي فيها على حرمةِ الدولةِ. أمَّا العنصرُ الآخَرُ فهو الاحترامُ والتوقيرُ، أي

---

[1]- أَثْبَتُّ في العنوانِ "مِنْ" التي تفيدُ "التبعيض"؛ حتَّى لا أَدَّعِيَ أنَّ المظاهرَ محصورةٌ فيما سأَذْكُرُه في هذه المداخلةِ، ولكنْ ما سأُورِدُهُ فيها ما هو إلا بعضٌ من كلٍّ، وهذا البعضُ هو ما وقفتُ عليه شخصيًّا، ولَفَتَ انتباهِي واهتمامِي. كما أنَّ المقصودَ بالعشريَّتَيْنِ الأخيرتَيْنِ ما كان مِنْ سنةِ 1988م تقريبًا إلى سنةِ 2009م التي نُعَايِشُهَا الآنَ.

الشعورُ بالتقديرِ لأفعالِ الدولةِ، وهو شعورٌ يَنْبَعِثُ من التزامِ هذه الأفعالِ بقيمٍ وقواعدَ مُطَّرِدَةٍ، ومِنْ خدمةِ هدفٍ عامٍّ يتعدَّى مصالِحَ القائمين عليها[1].

ولا يختلفُ اثنانِ من العقلاءِ في أهميةِ تَرَسُّخِ هيبةِ أيِّ دولةٍ بهذا المعنى لَدَى مواطنيها؛ إذْ إنَّ استقرارَها ونموَّها وتطورَها الإيجابيَّ في جميعِ الميادينِ السياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والعلميةِ منوطٌ بذلك.

إلا أنَّ الذي يُلاَحِظُهُ المتأمِّلُ في أحوالِ الجزائريِّينَ خلالَ الْعَقْدَيْنِ الأخيريْنِ هو شيوعُ بعضِ المظاهرِ التي يُفْهَمُ منها اهتزازُ هيبةِ الدولةِ عندهم. فمِنْ بين هذه المظاهرِ ما يأتي ذِكْرُهُ:

1- إهانةُ شخصِ رئيسِ الجمهوريةِ أو مَنْ دُونَهُ مِنْ رجالِ الدولةِ بشتَّى صورِ الإهانةِ. ومِنْ أكثرِ تلك الصورِ شيوعًا قولُ بعضِهم عندما لا يريدُ أن يُمَكِّنَ غيرَهُ من شيءٍ: "لن أُمَكِّنَكَ من ذاك الشيءِ، ولو جاء فلانٌ". ويذكُرُ اسمَ رئيسِ الجمهوريةِ أو مَنْ دونَهُ من رجالِ الدولةِ المدنيِّينَ أو العسكريِّينَ. فهذه الشخصياتُ تُمَثِّلُ الدولةَ، فمِنَ المفترَضِ أن تُنَزَّلَ منازلَها اللائقةَ بها، فلا تكونُ عُرْضَةً لكلامِ الناسِ، وإنْ لم يَكُنِ الغرضُ هو إهانَتُهم، ولكنْ مجرَّدُ الكلامِ عنهم بتلك الطريقةِ، والإتيانِ بأسمائِهم أو مَرْتَبَتِهم من المسؤوليةِ في مثلِ ذاك السياقِ، يُعَدُّ نوعًا من الانتقاصِ من شأنِهم؛ لأنَّهُ يَنُمُّ عن عدمِ إجلالِهم وتوقيرِهم.

ومِمَّا بلغني مِنْ بعضِ مَنْ زارَ البقاعَ المقدسةَ أنَّ أحدَ الحجاجِ أو المعتمِرين الجزائريِّينَ أرادَ أن يُقَبِّلَ الحجرَ الأسودَ، وكان عنده زحامٌ شديدٌ -كما هو عليه الحالُ دائمًا تقريبًا-، تقدَّمَ أحدُ رجالِ الأمنِ السعوديِّينَ بِزِيِّهِ الرسميِّ

---

[1]- ينظر: كلامٌ على هيبةِ الدولةِ، ياسين الحاج صالح، مقالٌ منشورٌ على الأنترنيت، أُخِذَ مع شيءٍ من التصرفِ يوم: 13-10-2009م، على الساعة: 21:00، من الصفحة الآتية:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=40990#

لِيُبْعِدَهُ، وهو يُذَكِّرُهُ بأنَّ تقبيلَهُ مجرَّدُ سنةٍ، وأنَّهُ يُمْكِنُ الاكتفاءُ بالإشارةِ إليه من بعيدٍ، دَفَعَهُ الجزائريُّ قائلاً[1]: "إنَّ الحجرَ الأسودَ ملكٌ للهِ تعالى، وليس ملكًا لك أو لفَهْدٍ[2]"، فدُهِشَ رجلُ الأمنِ وكلُّ مَنْ شَهِدَ هذا الموقفَ مِنْ غيرِ الجزائريّينَ؛ لأنَّهم لم يَتَعَوَّدُوا التجرُّؤَ على حكامِهم ورجالِ أَمْنِهِمْ بهذه الشاكلةِ.

وقريبٌ من هذا الصنيعِ إهانةُ صورِ رجالِ الدولةِ -خاصة الرؤساء منهم-، ومِمَّا أذكرُهُ في هذا الشأنِ أنّني صُدِمْتُ مرةً عندما كنتُ مارًّا في السوقِ المركزيِّ بمدينةِ الوادي، فرأيتُ بائعَ سجائر يَفْرِشُ لوحةً خشبيةً عُلِّقَتْ عليها صورةُ أحدِ الرؤساء السابقين[3] مِمَّنْ تَنَحَّى حينها عن الحكمِ، وعَرَضَ سجائرَهُ على تلك اللوحةِ والصورةِ.

بل إنَّ الأدْهَى مِنْ ذلك والأمَرَّ أنْ جُعِلَ بعضُ الرؤساءِ محلَّ تنكيتٍ، واخْتُلِقَتِ القصصُ التي تروي بعضَ الأحداثِ المضحكةِ التي لا أساسَ لها من الصحةِ، مع أنَّ محورَ الضحكةِ والنكتةِ فيها هو رئيسُ الجمهوريةِ ذاتُهُ رأسُ الهرمِ في الدولةِ، سواء كان في الحكمِ أو قد انعزلَ عنه، وسواء ما زالَ على قيدِ الحياةِ أو ارتحلَ إلى الدارِ الأخْرَى.

وليس بعيدًا عن هذا ما يكونُ من رسومٍ كاريكاتوريَّةٍ استهزائيَّةٍ تحملُ صورَ رئيسِ الجمهوريةِ، أو سائرِ رجالِ الدولةِ. فعلى الرغمِ من أنَّ التصويرَ الكاريكاتوريَّ الشائعَ الآنَ في الجرائدِ والمجلاتِ وفي الصحافةِ بوجهٍ عامٍّ هو فَنٌّ خاصٌّ ليس مرادفًا للسخريةِ التي حرَّمها الشرعُ، بل هو مجرَّدُ هزلٍ لا يُقْصَدُ

---

[1]- قال الجزائريُّ مقالتَهُ بلهجةٍ جزائريةٍ عاميَّةٍ، وما أَثْبَتُّهُ في المتنِ هو مِنْ إنشائِي، مع حفاظِي على المعنَى الذي أرادَهُ.

[2]- يُقْصَدُ بـ: "فهد" العاهلُ السعوديُّ السابقُ المتوفَّى سنة 2005م.

[3]- أفضِّلُ عدمَ ذكرِ اسمِ هذا الرئيسِ في هذا المقامِ العلميِّ الكريمِ؛ حتى لا أزيدَ في إهانتِهِ.

منه إيذاءُ الشخصِ المصوَّرِ، إلا إذا احْتَفَّتْ به قرائنُ تدلُّ على معنى السخريةِ والطعنِ والذمِّ، فإنَّهُ حينئذٍ يأخذُ حكمَهَا[1]، إلاَّ أنَّ الذي أراه لائقًا بهيبةِ الدولةِ أنْ لا تُعَرِّضَ رجالاتُها لمثلِ ذلك.

2- التضجُّرُ من تحيةِ العلمِ، وعدمِ الاستعدادِ له. وهذا مُلاَحَظٌ بشكلٍ خاصٍّ عند شبابِ الخدمةِ الوطنيةِ وتلاميذِ المدارسِ وموظَّفيهَا الذين هم مَعْنِيُّونَ يوميًّا برفعِ العلمِ الوطنيِّ وإنزالِهِ.

وأسوأُ من هذا الفعلِ إهانةُ هذه الرايةِ الوطنيةِ، وانتهاكُ حرمتِهَا، كالذي صدرَ عن أحدِ الأحزابِ السياسيةِ المعتمَدَةِ لحدِّ كتابة هذه الأسطرِ، عندما أُبْدِلَتِ الرايةُ الوطنيةُ برايةٍ سوداءَ في أعلى بوابةِ المدخلِ الرئيسيِّ للمقرِّ المركزيِّ لهذا الحزبِ[2]. وكذا ما صدرَ عن بعضِ تلاميذِ إحدى الثانوياتِ في العاصمةِ، لَمَّا استبدلُوا الرايةَ الوطنيةَ بالرايةِ الفرنسيةِ[3]. وربَّمَا أقلُّ مِنْ هذا إهانةً وانتهاكًا -وإنْ كان يبقَى في إطارِ الإهانةِ- ما يُلاَحَظُ عند بعضِ مؤسساتِ الدولةِ مِنْ تشوهاتٍ على الراياتِ الوطنيةِ المعلَّقَةِ بها، وذلك من حيثُ تَمَزُّقُهَا أو تَغَيُّرُ ألوانِها؛ بحُكْمِ الْقِدَمِ والظروفِ المناخيةِ، مِنْ غيرِ أنْ يُكَلِّفَ القائمُونَ على هذه المؤسساتِ أنفسَهم مهمةَ تصليحِهَا أو استبدالِهَا.

---

[1]- فتاوى مصطفى الزرقا، جمعها: مجد أحمد مكي، ط1، دار القلم، دمشق، 1420هـ/1999م، ص345 و346.

[2]- ينظر: سعدي يشرح أسباب استبدال العلم الوطني براية سوداء، مالك رداد، خبر أُخِذَ من الأنترنيت يوم: 16-11-2009م، على الساعة: 18:40، من الصفحة الآتية: http://www.al-fadjr.com/ar/national/106474.html

[3]- ينظر: عام حبسا نافذا للتلاميذ الـ5 الذين دنسوا العلم الوطني، ابتسام زاوي، خبر أُخِذَ من الأنترنيت يوم: 16-11-2009م، على الساعة: 18:30، من الصفحة الآتية: http://www.algeriachannel.net/?p=2034

يَحْدُثُ هذا مع أنَّ الْعَلَمَ والرايةَ الوطنيةَ ليس مجرَّدَ قطعةِ قماشٍ -كما يتصوَّرُ البعضُ-، ولكنَّهُ رمزٌ للدولةِ وسيادتِهَا، فمَنِ احترمَهُ فقد احترمَ الدولةَ، ومَنْ استخفَّ به فقد استخفَّ بها.

وهذا المعنى الجليلُ الذي يحملُهُ العلمُ، ويَغِيبُ عن بعضٍ مِنْ مواطنِينَا، نجدُهُ كان حاضرًا بقوَّةٍ عند سلفِنَا الصالحين؛ حيث كان المجاهدون منهم يَسْتَمِيتُونَ -كما اسْتَمَاتَ مجاهدو الجزائرِ وشهداؤُها- لأجلِ أن لا تسقُطَ رايتُهم. ومِمَّا يُؤْثَرُ في ذلك ما كان مِنْ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ ﷺ في معركةِ "مُؤْتَةَ" سنة 8هـ، حيث أخذَ الرايةَ بعد أن اسْتُشْهِدَ زيدُ بنُ حارثةَ ﷺ وهي في يدِهِ، وطَفِقَ يقاتلُ قتالاً منقطعَ النظيرِ حتى قُطِعَتْ يمينُهُ، فأخذَ الرايةَ بشمالِهِ، ولم يزلْ بها حتى قُطِعَتْ شمالُهُ، فاحتضنَهَا بعضديْهِ، فلم يزلْ رافعاً إيَّاها حتى قُتِلَ، ومِنْ بعدِهِ أخذَها عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ ﷺ الذي اسْتَبْسَلَ هو الآخَرُ مِنْ أجلِها حتى اسْتُشْهِدَ، وأخيرًا أخذَها سيفُ اللهِ المسلولِ خالدُ بنُ الوليدِ ﷺ، وكان النصرُ على يدِيْهِ[1].

والذي يُقَالُ عن العلمِ الوطنيِّ في هذا المظهَرِ، يُقَالُ عن النشيدِ الوطنيِّ؛ فإنَّ بعضَهم لا يَكْتَرِثُ به عندما يُعْزَفُ، رغمَ رَمْزِيَّتِهِ للدولةِ وسيادتِها، خاصةً أنَّ النشيدَ الوطنيَّ الجزائريَّ قد وُفِّقَ صاحبُهُ شاعرُ الثورةِ "مفدي زكرياء" في نَسْجِهِ أيَّمَا توفيقٍ؛ إذ إنَّهُ يشتملُ على كلماتٍ قويةٍ، ومعانٍ عظيمةٍ. ومِمَّا زادَهُ قوةً وعظمةً وجمالاً تلحينُ المصريِّ "محمد فوزي" له.

وهذا الأمرُ شَهِدُ به غيرُ الجزائريِّينَ من أصحابِ الأذواقِ السليمةِ الرفيعةِ. ومِنْ هؤلاء الداعيةُ السعوديُّ الدكتورُ "عائض القرني" لَمَّا زارَ الجزائرَ هذه

---

[1]- ينظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، بدون رقم ط، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، 1408هـ/1987م، ص 462 وما بعدها.

السنةَ، فإنَّهُ تأثَّرَ وذَرَفَ الدمعَ لَمَّا عُزِفَ النشيدُ الوطنيُّ في مستهَلِّ محاضرتِهِ التي ألقاها بقاعةِ المحاضراتِ الكبرى "عبد الحميد بن باديس" بجامعةِ الأميرِ عبدِ القادرِ للعلومِ الإسلاميةِ بقسنطينة[1].

ولا يقُولَنَّ قائلٌ: إنَّ نشيدَنَا الوطنيَّ قد اشتملَ على محظورٍ شرعيٍّ وهو القسمُ بغيرِ اللهِ؛ إذ إنَّ ما في النشيدِ يُؤَوَّلُ على أساسِ أنَّ لفظَ الجلالةِ محذوفٌ وَجَبَ تقديرُهُ. أي أنَّ الشاعرَ قصدَ أنْ يقولَ: قسمًا باللهِ ربِّ النازلاتِ الماحقاتِ إلى آخرِ ما قسمَ به، ولكنَّ ضرورةَ الوزنِ الشعريِّ ألجأَتْهُ إلى ذلك الحذفِ.

3- الاستخفافُ بهيئةِ الحرسِ البلديِّ ورجالاتِهَا، والتنكيتُ بهم. فهذه الهيئةُ معلومٌ أنَّهَا اسْتُحْدِثَتْ مع اشتدادِ الأزمةِ الأمنيةِ في العشريَّةِ السوداءِ[2]؛ لتكونَ عونًا لجهازيِ الأمنِ والدركِ الوطنِيَّيْنِ وكذا الجيشِ الشعبيِّ الوطنيِّ.

وبحكمِ الظروفِ الصعبةِ التيَ نشأتْ فيها هيئةُ الحرسِ البلديِّ، فقد ضَمَّتْ أعدادًا معتبرَةً مِنْ محدودِي المستوى العلميِّ الأكاديميِّ. وتَبَعًا لذلك فقد ظهرت مِنْ بعضِهم في حالاتٍ معيَّنَةٍ بعضُ التصرفاتِ التي تدلُّ على محدوديَّةِ مستواهم. فهذا الأمرُ جعلَ مِنْ شرائحَ مختلفةٍ مِنَ المواطنين يستخفُّونَ بهم، ويَنْسُجُونَ قصصًا مضحكةً يَنْسِبُونَ صنعَ أحداثِها إليهم.

---

[1]- ينظر: في حديث لقناة "اقرأ" عائض القرني: "الجزائريون أكثر شعوب العالم كرمًا ونبلاً وتعلقًا بالإسلام"، باديس قدادرة، مقالٌ منشور على الأنترنيت، أُخِذَ يوم: 15-11-2009م، على الساعة: 10:00، من الصفحة الآتية:
http://badisdz.maktoobblog.com/1616999/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D8%A7%D8%A6%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%86%D9%8A-%D9%8A%D8%B4%D9%8A%D8%AF-

[2]- هكذا يُسَمِّي أغلبُ الجزائريّينَ تسعينيَّاتِ القرنِ العشرينِ للميلادِ، وإنْ كنتُ أفضِّلُ أن يُزَادَ إليها وصفُ "الحمراء" أيضاً؛ لكثرةِ ما أُسِيلَ فيها من دماءِ.

ولا يخفَى ما في هذا مِنْ ضربٍ لهيبةِ الدولةِ؛ إذ إنَّ هيئةَ الحرسِ البلديّ جهازٌ رسميٌّ تابعٌ لها، هذا إضافةً إلى ما في ذلك من تَنَاسٍ للتضحياتِ الجسامِ التي قَدَّمَهَا رجالُ هذه الهيئةِ في سبيلِ الحفاظِ على أمنِ الأفرادِ والممتلكاتِ وبقاءِ الجمهوريةِ. مع العلمِ أنَّ تلك القصصَ الملفَّقةَ في أغلبِها؛ فهي مِنْ نَسْجِ خيالِ مُرَوِّجِيهَا، فيها استهزاءٌ وسخريةٌ بالغيرِ واحتقارٌ له. واللهُ تعالى يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:11]. والنبيُّ ﷺ يقولُ: ﴿المسلمُ أخُو المسلمِ: لا يظلمُهُ، ولا يخذُلُهُ، ولا يحقِرُهُ. التقوى هاهنا –ويشيرُ إلى صدرِهِ–، بحسبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقرَ أخاهُ المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُهُ، وعرضُهُ، ومالُهُ﴾[رواه الشيخان].

4- التهرُّبُ من الخدمةِ الوطنيةِ بشتَّى صنوفِ التهرُّبِ. فالخدمةُ الوطنيةُ فرصةٌ لترسيخِ معالِمِ الوطنيَّةِ في المواطنِ؛ وذلك مِنْ خلالِ رَبْطِهِ الدائمِ بالرايةِ والأناشيدِ الوطنِيَّتَيْنِ، وتعريفِهِ بأبناءِ وطنِهِ مِنْ شتَّى ربوعِهِ، وتعويدِهِ على خدمتِهِ وتقديمِ الغالي والنفيسِ له ولو من غيرِ مقابلٍ ماديٍّ.

هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الخدمةَ الوطنيةَ مِنْ شأنِها أنْ تُعِدَّ المواطنَ عسكريًّا للدفاعِ عن الوطنِ في حالِ تَعَرُّضِهِ لاعتداءٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ، إلى درجةِ أنَّني وأنا أبحثُ في رسالتِي للدكتوراه عن "أحكامِ الرياضاتِ البدنيةِ في الفقهِ الإسلاميِّ" أكادُ أجزِمُ بأنَّ الخدمةَ الوطنيةَ واجبةٌ شرعًا على كلِّ مواطنٍ قادرٍ؛ ذلك أنَّ أكثرَ النصوصِ الشرعيةِ التي تكلمتْ عن الرياضةِ تَرْبِطُهَا في الأغلبِ بمقصدِ الإعدادِ لملاقاةِ العدوِّ المعتدي، فتكونُ الخدمةُ الوطنيةُ في شكلِهَا المعاصِرِ مُجَسِّدَةً لهذا المقصدِ الساميِّ.

لكنِ الذي نَرَاهُ عند عددٍ معتبرٍ مِنَ الشبابِ وأهليهم هو بُغْضُهُمْ للخدمةِ الوطنيةِ، ونفورُهم منها، حتى إنَّ بعضَهم يتجاهلُهَا كُلِّيَّةً؛ بحيث لا يُسَجِّلُ نفسَهُ فيها، ولا يذهبُ للفحصِ الأوَّلِيِّ، ولا يستجيبُ لاستدعاءاتِ الجيشِ الوطنِي الشعبِيِّ المتكررةِ له، وبعضَهم يلجأُ إلى طرقٍ محرمةٍ شرعًا وقانونًا؛ للتهرُّبِ من تأديتِهَا، بل إنَّ أحدَهم إذا ما أُعْفِيَ منها لسببٍ من الأسبابِ التي تَسْتَوْجِبُ الإعفاءَ، يقيمُ هو وأهلُهُ فرحًا.

فكلُّ ذلك يُعَبِّرُ عن اهتزازٍ لهيبةِ الدولةِ عند هؤلاءِ المواطنين، وإلا ما كانُوا لِيَسْمَحُوا لأنفسِهم أن يسلُكُوا طرقًا محرمَّةً؛ لأجلِ التهرُّبِ مِمَّا فيه تمكينٌ للدولةِ وتقويةٌ لها. وكذا ما كانُوا لِيُقِيمُوا الأفراحَ لِمَنْ خسرتْهُ الدولةُ كعنصرٍ مِنْ عناصرِ تثبيتِ كيانِهَا والدفاعِ عنه أمامَ مَرْأَى ومَسْمَعٍ مِنْ أجهزتِهَا المختلفةِ.

5- تَبَنِّي مذهبٍ عقائديٍّ أو فقهيٍّ أو قِرَائِيٍّ قرآنيٍّ -نسبة إلى قراءة القرآن-، ومحاولةُ فَرْضِهِ على الناسِ وإقناعِهم به، وتغليطُ المذاهبِ الرسميةِ المعتمَدَةِ.

فمِنَ الْمُسَلَّمِ به أنَّ الشعبَ الجزائريَّ مسلمٌ، وأنَّ أغلبَ أفرادِهِ قد اختارُوا نظريًّا وعمليًّا منذ قرونٍ عقيدةَ الإمامِ الأشعريِّ، وفقهَ الإمامِ مالكٍ، وروايةَ الإمامِ ورشٍ عن الإمامِ نافعٍ في القراءةِ. وبناءً على هذا فقد نُصَّ في الدستورِ الجزائريِّ على أنَّ الإسلامَ دينُ الدولةِ، ورُسِّمَتْ عن طريقِ تعليماتِ وزارةِ الشؤونِ الدينيةِ والأوقافِ العقيدةُ الأشعريةُ وفقهُ المالكيةِ وروايةُ ورشٍ، وأصبحت هذه الثلاثةُ هي المعتمَدَةُ في الخطابةِ والتدريسِ والإفتاءِ والإقراءِ والصلواتِ.

إلا أنَّهُ في الآونةِ الأخيرةِ برزتْ على سطحِ الحياةِ الدينيةِ ظاهرةُ التنصيرِ -خاصة في منطقة القبائل-، وأصبحَ النصارى مِنْ غيرِ الجزائريِّينَ، والمتنصِّرُونَ مِنَ الجزائريِّينَ ينالُونَ مِنَ الإسلامِ ورسولِهِ وتعاليمِهِ، وينشرُونَ نصرانيَّتَهم مِنْ خلالِ جمعياتٍ ومقراتٍ ووسائلَ غيرِ مرخَّصٍ بها في أغلبِ الأحوالِ.

وأقلُّ مِنْ هذا خطرًا -ولكنْ يبقَى في إطارِ مظاهرِ اهتزازِ هيبةِ الدولةِ- ما يفعلُهُ بعضُ الأئمةِ الرسميّينَ أو المتطوّعين، وكذا الشبابُ المتديّنُ حديثًا والذي تتلمذَ على أشرطةٍ وأقراصٍ ومطويّاتٍ وكُتَيّباتٍ ومواقعَ أصحابُهَا مِمَّنْ يَتَبَنَّوْنَ العقيدةَ الوهابيةَ وفقهَ الحنابلةِ وروايةَ الإمامِ حفصٍ عن الإمامِ عاصمٍ في القراءةِ، فهؤلاءُ الأئمةُ والشبابُ يُجَاهِرُونَ بنشرِ تعاليمِ هذه المذاهبِ المخالفةِ للمذاهبِ الرسميةِ والشائعةِ شعبيًّا، ويعتمدُونَ عليها في المساجدِ التي ينشطُونَ فيها، ويحاولُونَ أنْ يُقْنِعُوا الناسَ بها، بل ويُغَلِّطُونَ المذاهبَ المعتمدةَ السائدةَ، ويضربُونَ عَرْضَ الحائطِ مضمونَ مراسلاتِ وتعليماتِ ومذكراتِ الوزارةِ الوصيةِ.

فهذا الصنيعُ لا شكَّ أنَّهُ متولِّدٌ عن اهتزازِ هيبةِ الدولةِ عند هؤلاءِ، وإلاَّ ما تَجَرَّؤُوا على ما صنعُوا في مؤسساتٍ هي في الأصلِ تابعةٌ للدولةِ. وإنْ كنتُ شخصيًّا لا أحبُّ أَحْجُرَ على أحدٍ في أنْ يَتَبَنَّى أيَّ مذهبٍ عقديٍّ أو فقهيٍّ أو قِرَائِيٍّ مُعْتَبَرٍ عند أئمةِ الإسلامِ؛ إذ إنَّ الأمرَ متروكٌ للقناعاتِ الخاصةِ، والظروفِ المحيطةِ بنشأةِ الشخصِ المعيَّنِ، ولكنِ الذي أَعِيبُهُ في هذا المقامِ هو تجاهلُ ما هو سائدٌ معتمَدٌ في الدولةِ، والتجاوزُ عن تعليماتِ الوصايةِ التابعةِ لها.

6- اتِّصَافُ بعضِهم بالْعُنْصرِيَّةِ، ودعوتُهُ إلى تفريقِ صَفِّ الشعبِ الجزائريِّ الواحدِ[1]: فمعلومٌ أنَّ شهداءَنَا ومجاهدِينَا ما رَفَعُوا السلاحَ، وما جَادُوا بالغالي والنفيسِ، إلا لأجلِ أن تكونَ الجزائرُ وتَبْقَى مسلمةً مستقلةً مُوَحَّدَةً، مِنْ شرقِهَا إلى غربِهَا، ومِنَ شمالِهَا إلى جنوبِهَا، بِعَرَبِهَا وأَمَازِيغِهَا، ومَالِكِيِّيهَا وإِبَاضِيِّيهَا.

---

[1]- هذا المظهَرُ والمظهرانِ اللذانِ بعدَهُ مقتبَسَةٌ من موضوعٍ بعنوانِ: "خِصَالٌ انتشرتْ فينا وهِيَ تُنَافِي مبادئَ نُوفَمْبَرَ"، وهو منشورٌ ضمنَ كتابٍ لصاحبِ المداخلةِ عنوانُهُ: نماذجُ مِنَ الخطبِ المنبريَّةِ، ط1، مطبعة الوليد، كوينين (الوادي)، 1430هـ/2009م، ص178 وما بعدها.

ولذا عندما يَجِيءُ بعضُ الجزائريّينَ -ونحن نَنْعَمُ بالاستقلالِ- ويُثيرُونَ النَّعَرَاتِ الجهويةِ، أو الْعِرْقِيَّةِ، أو المذهبيةِ، فهؤلاءِ مَطْعُونٌ في وَطَنِيَّتِهم الجزائريةِ، وهُوِيَّتِهم الإسلاميةِ؛ بدليلِ أنَّهم خَانُوا عهدَ الشهداءِ والمجاهدين، وأنَّهم بدعوتِهم الْمَقِيتَةِ هذه سيُمَزِّقُون البلادَ، ويُشَتِّتُونَ وَحْدَتَهَا، ويُضْعِفُونَ كيانَهَا، ويُدْخِلُونَهَا في صراعاتٍ داخليةٍ هي في مَنْأًى عنها، ويُؤَخِّرُونَهَا عن رَكْبِ الأممِ التي تسعى للتقدمِ والازدهارِ.

والمتأملُ في النصوصِ الشرعيةِ سيَجِدُ تحذيرًا شديدًا من إحداثِ التفرقةِ بين المسلمين، وزَرْعِ الْبَلْبَلَةِ في صفوفِهم، وزَعْزَعَةِ كيانِهم الواحدِ. فمِنْ بين تلك النصوصِ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال:46]. وكذا ما كان مِنَ النبيِّ ﷺ في غزوةِ بَنِي الْمُصْطَلَقِ سنة 6هـ، لَمَّا كَسَعَ[2] رجلٌ من المهاجرين رجلاً مِنَ الأنصارِ، فقال المهاجريُّ: "يا معشرَ المهاجرين". وقال الأنصاريُّ: "يا معشرَ الأنصارِ". فسمع ذلك النبيُّ ﷺ فقال: ﴿مَا بَالُ دَعْوَى الجاهليةِ؟!﴾ فأخبرُوهُ بِمَا وَقَعَ، فقال: ﴿دَعُوهَا؛ فإنَّها مُنْتِنَةٌ﴾[رواه الترمذي].

7- **فِعْلُ ما يُزَعْزِعُ أَمْنَ البلادِ واستقرارَهَا.** ففي الوقتِ الذي يُنْتَظَرُ فيه من جميعِ الجزائريّين أن يُحَافِظُوا على الْكَنْزِ العظيمِ الذي وَرَّثَهُ لهم أسلافُهم من الشهداءِ والمجاهدين، وهو البلادُ الآمنةُ المستقرَّةُ بعد دَحْرِ الْمُسْتَدْمِرِ

---

[1]- يُقْصَدُ بالريح في هذا السياقِ القرآنيِّ: القوةُ والنصرُ، وما في معناهما من الْمَنَعَةِ والْهَيْبَةِ. ينظر: أيسر التفاسير، أبو بكر جابر الجزائري، ط1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1416هـ/1995م، ج2، ص31، حاشية1 بشيءٍ من التصرفِ.

[2]- كَسَعَ، بمعنى: ضَرَبَ دُبُرَهُ بيدِهِ، أو بصدرِ قدمِهِ. ينظر: القاموس الجديد، علي بن هادية وآخران، ط7، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، باب الكاف، ص903.

الْمُسْتَخْرِبِ منها، نَجِدُ أنَّ بعضًا منهم مِمَّنْ تَخَلَّى عن قِيَمِ دينِهِ الحنيفِ، وتَنَصَّلَ من مبادئِ ثورتِهِ ثورةِ نوفمبر المجيدةِ، وبعد أن تلاشتْ هيبةُ الدولةِ عنده، يفعلُ مَا مِنْ شأنِهِ أن يُهَدِّدَ البلادَ في أمنِهَا واستقرارِهَا.

وأَعْنِي بذلك ما يتعلَّقُ بالمنخرطين في سلكِ الجريمةِ الْمُنَظَّمَةِ، سواء أولئك الذين خَرَجُوا عن شعبِهم، وحَمَلُوا السلاحَ ضِدَّهُ، أو أولئك الذين كَوَّنُوا شبكاتٍ للاختطافِ أو التهريبِ أو التزويرِ أو الدعارةِ أو ترويجِ المخدراتِ وسائر الخمورِ.

فهؤلاءِ جميعًا، وكلُّ مَنْ تَتَسَرَّبُ إليه فكرةُ الانضمامِ إليهم، والعملِ معهم، عليهم أنْ يَعْلَمُوا بأنهم بصنيعهم ذاك قد تَجَاوَزُوا عن تعاليمِ دينِهم الذي يُعَظِّمَ مِنْ أَمْرِ أَمْنِ الأوطانِ واستقرارِهَا. يقول النبيُّ ﷺ: ﴿مَنْ أصبحَ منكم آمِنًا في سِرْبِهِ[1]، مُعَافًى في جسدِه، عنده قُوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بِحَذَافِيرِهَا﴾[رواه الترمذي]. كما أنَّ شهداءَ الوطنِ ومُجَاهِدِيهِ، سيُحَاجُّونَهم عند اللهِ تعالى يومَ القيامةِ؛ لأنَّهم ضَيَّعُوا أمانتَهم، وبَخَّرُوا آمالَهم في أن تَصِيرَ الجزائرُ آمنةً مستقرةً.

8- عدمُ إتقانِ المواطنِ أداءَ العملِ أو الوظيفةِ الْمُسْنَدَةِ إليه. إنَّ المواطنَ الجزائريَّ بحكمِ إيمانِهِ بربِّهِ، يُفْتَرَضُ فيه وهو يقومُ بالمهمَّةِ التي أُوكِلَتْ إليه، سواء كانت صناعيةً أو زراعيةً أو تجاريةً، أو كانت من قَبِيلِ الخدماتِ العامةِ كالصحةِ والتعليمِ والحراسةِ ونحوِها، يُفْتَرَضُ فيه أن يَسْتَشْعِرَ حين أدائِهِ لتلك المهمَّةِ بأنه بين يدي اللهِ ﷻ الذي لا تَخْفَى عليه خافيةٌ. وهذا الشعورُ يَجعلُهُ

---

[1]- سِرْبِهِ: نفسِهِ وقومِهِ. ينظر: رياض الصالحين، النووي، ت: جماعة من العلماء بإشراف زهير الشاويش، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق وعمّان، ص239.

يَصِلُ إلى درجة الإحسانِ التي قال عنها النبيُّ ﷺ في حديثِ جبريلَ الطويلِ: ﴿أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ، فإنَّهُ يَرَاكَ﴾[رواه مسلم]. كما أنه سوف يَسْتَرْشِدُ بقول النبيِّ ﷺ: ﴿الدينُ النصيحةُ﴾. قال الصحابةُ ﷺ: "لِمَنْ يا رسولَ اللهِ؟" قال: ﴿للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامتِهِمْ﴾[رواه مسلم]. وعندئذٍ سيقومُ بعمله على أحسن وجهٍ؛ خوفًا من الله تعالى ابتداءً، وهو الذي يحبُّ من المسلم إذا عَمِلَ عملاً أن يُتْقِنَهُ، ونصيحةً لإخوانه من المسلمين انتهاءً.

لكنِ الذي نَرَاهُ اليومَ في عَالَمِ الشُّغْلِ في الجزائر، أنَّ عددًا مُعْتَبَرًا من العمالِ والموظَّفين، يَغُشُّونَ في أداء أعمالِهم ووظائِفِهم بشتَّى صنوفِ الغشِّ، نَذْكُرُ منها على سبيل المثالِ ما يأتي:

- تضييعُ الوقتِ المخصَّصِ للعملِ أو الوظيفةِ، سواء من حيث الالتحاقُ بمكانِهما بعد الوقتِ المحدَّدِ، أو الخروجُ منهما قبل انتهائِهِ، أو إهدارُ جزءٍ منه أثناء القيامِ بهما.

- البخلُ بِمَا هو في الإمكانِ من الجهدِ والخبرةِ، بحيث نَجِدُ الواحدَ منهم لا يكادُ يُعْطِي من قدراتِهِ وإمكاناتِهِ إلا النَّزْرَ اليسيرَ.

- عدمُ الحفاظِ على الممتلكاتِ العامةِ من طاقةٍ كهربائيةٍ أو غازيةٍ أو مائيةٍ، أو أجهزةٍ ووسائلَ مختلفةٍ، أو بِنَايَاتٍ وأثاثٍ مُعَيَّنٍ.

وبناءً على هذه الصورِ وأمثالِها من أشكالِ الغشِّ المختلفةِ التي تدلُّ دلالةً واضحةً على تَدَنِّي هيبةِ الدولةِ عند أصحابِها لم نتقدَّمْ خطواتٍ ذاتَ بالٍ نَحْوَ الرُّقِيِّ والازدهارِ، كما كان يَأْمَلُ شهداؤُنا ومجاهدُونا رغمَ مرورِ ما يُقاربُ الخمسةَ عقودٍ عن استقلالِنَا. بل إنَّنَا أصبحْنَا مَضْرِبَ الْمَثَلِ في كثيرٍ من الأحيانِ للغِشِّ واللاَّمُبَالاَةِ في أعمالِنَا ووظائِفِنَا.

وفي ختامِ هذه المداخلةِ، أريدُ أنْ أقولَ: إنَّ ما ذُكِرَ فيها بشيءٍ من التفصيلِ من مظاهرَ تُعَبِّرُ عن اهتزازِ هيبةِ الدولةِ الجزائريةِ عند مواطنيها في الْعَقْدَيْنِ الأخيرَيْنِ، ما هو إلا نماذجُ من تلك المظاهِرِ الكثيرةِ، وإلا فإنَّني أستحضِرُ الآنَ مظاهِرَ أخرى تحتاج إلى وقفةٍ منّي في مناسبةٍ أخرى أو من غيري من الباحثين؛ حتى لا أتوسَّعَ على حسابِ مداخلاتٍ أخرى، لكنْ لا بأسَ أنْ أذكرَها في شكلِ رؤوسِ أقلامٍ للإثارةِ العلميةِ: عدمُ الاكتراثِ بالاستحقاقاتِ الانتخابيةِ من حيث المشاركةُ فيها، حرقُ الأوراقِ النقديةِ ساريةِ المفعولِ في بعضِ مناسباتِ الأعراسِ، الجهلُ بقوانين الدولةِ وعدمُ احترامِهَا، تحرُّجُ كثيرٍ من الأئمةِ من التطرُّقِ في خطبِهم ودروسِهم إلى الذكرياتِ التاريخيةِ واستثقالُ المصلّين الكلامَ عنها.